رسالة ملكية إلى المشاركين
في ندوة «جامعة القرويين
في أفق القرن الحادي والعشرين بفاس»

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني رسالة إلى المشاركين في ندوة "جامعة القرويين في أفق القرن الحادي والعشرين" التي نظمت بفاس يوم 19 رجب 1418 هـ الموافق ل 20 نونبر 1997 م . تحت رعاية صاحب الجلالة والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بتعاون مع جامعة القرويين.

في ما يلي نص الرسالة الملكية التي تلاها السيد محمد الكتاني المكلف بمهمة بالديوان الملكي :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

حضرات السادة والسيدات،

إنه ليسعدنا أن ننوه بعقد هذه الندوة الجامعية وأن نعبر للذين سعوا إلى عقدها وتنظيمها عن ارتياحنا للتوفيق الذي حالفهم في اختيار موضوعها لأنه موضوع يتجاوب مع إرادتنا المتجددة في إصلاح التعليم.

هذا الإصلاح الذي يتعين عليه أن يواكب متطلبات التنمية الاجتماعية والتجديد المؤسساتي واستيفاء كل مقومات بناء المجتمع المغربي لولوج القرن الواحد والعشرين. ذلكم أن النهضة الشاملة التي ما فتئنا نسعى إلى تحقيقها لمملكتنا، إنما تتحقق باستثمار العلوم والمعارف الإنسانية في شتى مجالاتها ومواكبة مسيرة الإنسانية في توظيف تلك العلوم في تنمية طاقاتها وتحقيق رغدها والقضاء على أزماتها ومخاوفها مع تقوية الوعي بالهوية الوطنية وبالقيم الأخلاقية، والمؤسسات التعليمية والعلمية وفي مقدمتها الجامعات، هي التي تؤهل الموارد الإنسانية في أي بلد للإمساك بمقاليد نموه ونهضته والحفاظ على ثقافته وهويته.

وهكذا كانت جامعة القرويين بالنسبة للمجتمع المغربي فيما مضى من العصور. ذلكم أن حفاظ المملكة المغربية على هويتها الإسلامية ووحدتها السياسية والمذهبية على توالي العصور لم يتحقق لنا من باب الصدفة. وإنما كان ناتجا عن عوامل متكاملة في مقدمتها قيام المؤسسات التربوية والعلمية والدينية عبر تاريخنا بدورها الفاعل في صياغة الفكر المغربي وتشكيل ثقافته وتوحيد سلوكه الثقافي والديني.

ولا خلاف في أن جامعة القرويين ظلت على مدى تلك العصور صرحا جامعيا تنظم كل المؤسسات العلمية والدينية التي عرفها المغرب في مختلف جهاته كالزوايا والمساجد والمدارس. فهي التي كانت تمد هذه المؤسسات بالعلماء والفقهاء وتستقطب طلابها الطامحين إلى المزيد من العلم فتصهرهم في بوتقة واحدة وتجعل منهم شخصيات علمية قادرة على تأطير الحياة الاجتماعية والثقافية لتلك الجهات والأقاليم فضلا عما وراءها من الأقطار.

ومن أجل هذا الدور الحضاري في تثبيت هوية المجتمع المغربي واستقراره، استأثرت جامعة القرويين بعناية الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب ولا سيما أجدادنا المنعمين ملوك الدولة العلوية الميامين فأنشأوا لها مدارس كانت بمثابة الأحياء الجامعية وأجروا عليها الجرايات وأغنوا المكتبات التابعة لها بالمصادر الأمهات، كما نهض نظام الأوقاف بدعم طلابها وإجراء الجرايات على علمائها. فتسابق الطلاب إلى النهل من علومها من المشرق والمغرب وقلب افريقيا. فلا غرو إذن أن تكون بمثابة المؤسسة الشامخة التي يدين لها تاريخ المغرب باستمرار ثقافته والحفاظ على هويته ومذهبيته الفقهية والعقدية. وإنجاب علماء نبغاء كانوا لعلماء المشرق أندادا. وفي علوم المنقول والمعقول روادا أفذاذا.

وهاهي هذه الجامعة العريقة قد تجاوز عمرها أحد عشر قرنا في خدمة العلم والثقافة الإسلامية، موازية بذلك عمر الدولة المغربية العريقة في نظامها

وتقاليدها. إن هذا التوازي وذلك الاستمرار بين الجامعة وبين الكيان المغربي كاف في الدلالة على التحام المكونات الثقافية والدينية للمجتمع المغربي بالمكونات السياسية والحضارية. وكاف أيضا في الدلالة على صمود جامعة القرويين في موقعها الدفاعي في وجه رياح الغزو الثقافي والمذهبي والتقلبات المناوئة لوحدة المغرب وهويته، غير أن هذا الصمود لا ينبغي أن يعني الانغلاق أمام عوامل التجديد أو رفض التلاقح العلمي أو التقوقع داخل أسوار التقليد واجترار الموروث الثقافي وحسب.

فالعلم إذا لم ينفتح على مختلف المناهج والتجارب وقع في تجميد الفكر بدل تحريره وفرض التقليد بدل إشاعة الاجتهاد.

لذلك عندما تنظمون -حضرات السادة- هذه الندوة في موضوع جامعة القرويين في أفق القرن الواحد والعشرين، فإنكم تواكبون السنة المطردة في حياة المجتمع المغربي. واستمرار مؤسساته مع مسايرة متغيرات العصر والحضارة. فالتغير الاجتماعي أصبح من ثوابت الحياة الإنسانية المعاصرة. وما من مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم إلا وتعرف هذه الوتيرة المتسارعة للتغيير والتطور. بل علينا أن نقر بأن الثورة الإعلامية في هذا العصر لم تدع للأمم والمجتمعات خيارا في مواكبة تلك المتغيرات بالسرعة المطلوبة. والتاريخ يعلمنا أن التطور إما أن يفاجىء المجتمعات ويداهمها من خارج فيحدث في نسيجها الحضاري والثقافي خللا بين قطاع وقطاع من حياتها الاجتماعية والثقافية فتظهر الأزمات الاجتماعية التي تربك الناس في التكيف معها وإما أن يحدث ذلك التطور والتغير في تجاوب وتفاعل مع القوى الاجتماعية. وهذا المنظور الذي يحكم مصالح الأمة العليا في استيعاب التطور الحضاري هو الذي نحرص على التزام المؤسسات الجامعية بقيمه وأهدافه لتكون الجامعة أداة ناجعة لمواكبة التطور العلمي والمساهمة فيه وتنمية الفعاليات الوطنية في جميع حقول المعرفة الإنسانية مع المحافظة

على الهوية المغربية ومقوماتها في الوحدة والتلاحم الاجتماعي والقيم الروحية.

فعلى جامعاتنا أن تجمع في تكوينها بين التفتح على الآفاق المنظورة للمستقبل ومواكبة التطور العلمي ومتغيرات الحياة الإجتماعية لتعد الأجيال لذلك المستقبل من ناحية، وبين تنمية الثقافة الوطنية والحفاظ على هوية المواطن والتحامه بأمته ووطنه من ناحية أخرى.

ومسألة الهوية والوحدة الوطنية هما في مقدمة الشروط التي يرتهن بها مستقبل المغرب في أفق القرن الواحد والعشرين. وعلى أساس تفعيلهما في حياتنا يتحقق الاستمرار للشخصية المغربية في سياق التطور. والثقافة الإسلامية الأصيلة بقيمها ولغتها هي الأساس المرجعي لهذه الهوية. وبفضلها تحقق للمغرب الصمود والاستمرار والتفاعل الخصب عبر التاريخ. واليوم وقد أصبحت قضية المحافظة على هويتنا وأصالتنا ووحدتنا الوطنية قضية حيوية في خضم التفتح الحضاري والثقافي الذي لا مناص منه، فإن على جامعة القرويين أن تتحمل مسؤوليتها الكاملة في هذا الاتجاه من منطلق الحفاظ على شخصيتنا والتحكم في توجيه التطور الثقافي وتكييف نتائجه حتى لا يقع أي تصادم بين الأصالة والمعاصرة.

فإذا أضفنا إلى هذا المطلب الحيوي ما يكتنفه من صراع الثقافات وحوار الحضارات وعلمنا أن كل خيار مصيري نختاره لتربية أجيالنا وإعدادها لا يستطيع أن يحافظ على توازنه إلا عبر الحوار والأخذ والعطاء والإقناع والإقتناع في عالم بلا حدود ولا حواجز إعلامية، أدركنا بأننا مطالبون ليس فقط بالحفاظ على هوتنا ولكن بكوننا مطالبين أيضا بمواجهة كل حوار في شأن هذه الهوية وبإظهار قوة منطقها ونجاعة خياراتها وأدركنا أننا مطالبون علاوة على ذلك بتكوين فعاليات فكرية مؤهلة كل التأهيل

لتنهض بهذا الحوار الثقافي وبالقيادة الفكرية المسؤولة عنه على الوجه المطلوب.

وإعداد هذه الفعاليات الجامعة بين ثقافة الإسلام الصحيحة والعميقة المتخصصة مع الإلمام الواسع بثقافة عصرنا وآفاق علومها الإنسانية ومناهج استقطابها للفكر الإنساني وبلغاتها الرئيسية هو مسؤولية جامعة القرويين في أفق القرن المقبل بالإضافة إلى مسؤولياتها الأساسية في تنمية البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية والإسلامية بصفة خاصة. فاقتحامها لخضم هذا العصر المشحون بكل عوامل الصراع مع موقع الحفاظ على تراث الإسلام الثقافي والروحي والعمل على إشعاعه واستمراره داخل المجتمع المغربي هو الذي يضعها في قلب الحياة المتجددة والمتطورة ويلهم أساتذتها ومسؤوليها مشاريع العمل المجدي ومناهج تكوينها المتجدد لتواكب ما يعيشه المغرب من تعبئة شاملة لولوج القرن المقبل لا سيما ونظام الجامعات في بلادنا وهو نظام مدعوم بنصوص قانونية مرنة وقابلة للابتكار والتجديد يخولها حق الإبداع والتوفيق بين مطالب الثبات والتطور وإدماج بعض تخصصاتها في النسيج العام لحركة التنمية الشاملة التي تواجهها بلادنا.

حضرات السادة والسيدات

إننا نهيب بجامعة القرويين باعتبارها من أقدم جامعات العالم أن تستعيد مركزها الإشعاعي الإسلامي داخل القارة الإفريقية كما كان شأنها من قبل وأن تمد الجسور بينها وبين الجامعات المماثلة، فتستقبل وتوفد وتوسع من نطاق هذه السفارات العلمية التي كانت في تاريخنا خير منهج لتوطيد علاقات التضامن الفكري والعلمي بين المغرب وبين أشقائه.

وأن يستهدف تكوينها للعلماء ورجالات الثقافة الإسلامية حضورهم العلمي والثقافي الإسلامي عبر الآفاق بما يتطلبه ذلك من إتقان اللغات الأوربية التي تستعملها البلاد المختلفة في جامعاتها إلى جانب إتقان لغة

القرآن والعمل المنهج لتوسيع استعمالها إلى جانب حضورهم الفعال في الحوار الموصول بين الإسلام والغرب.

فجامعة القرويين مسؤولة عن تكوين هذه الصفوة من كبار العلماء القادرين على إسماع صوت الإسلام الحق بعد أن تعددت الأصوات المشبوهة في التحدث باسمه وتكوين صورة مشوهة عنه وما أعظمها مساهمة في تنمية المجتمع المغربي وتفعيل طاقته في الإنتاج والمنافسة تلك التي يمكن أن تقدمها هذه الجامعة من خلال الثقافة الإسلامية التي تكون رجالاتها ليظلوا أمناء كأسلافهم على استمرار الشخصية المغربية المسلمة الصامدة في وجه التيارات المناوئة للوحدة والهوية، فهذه هي رسالتها "الجامعة" كما كانت عبر العصور وكأنها ضمير المجتمع المغربي المسلم الذي يدله على مركز الاعتدال وسط أعاصير التطرف وعلى مرجعية الثوابت المقدسة في خضم حملات التشويه ونزعات الانسلاخ من الهوية.

وفقكم الله وسدد أنظاركم وخطاكم لمقاربة وتشخيص ما يتعين أن تظل جامعة القرويين قيمة على استمراره ساهرة على تجديده من تلكم الثوابت والقيم الإسلامية والوطنية.

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" .

صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحرر بالقصر الملكي ببوزنيقة

بتاريخ 18 رجب 1418 الموافق 19 نونبر 1997